المسرح في العراق
قراءة انثربولوجية في المنهج والسلوك

أ.د زيد ثامر عبد الكاظم مخيف
العراق- جامعة بابل-كلية الفنون الجميلة- قسم الفنون المسرحية

2021م / 1443هـ

ملخص البحث

يحتكم هذا البحث على دراسة منهج وسلوك الإنسان وفقا لطرائق ومعطيات ومناهج مقننة أولا، وتفسير السلوك الذي يعتمده تبعا للإدراك العقلي وابتكاراته ووسائله التي يستخدمها ثانيا، للبحث عن نتائج ايجابية تكاد تكون لها مشتركات سيسيولوجية وسيكولوجية وثقافية من اجل إعداد المجتمعات ولاسيما العراقية منها نحو الجادة السليمة ونحو أسلوب الحياة الذي يميزها وطرائق التفاعل والاتصال بين الأجناس في الوقت الحاضر وليس الماضي، لاسيما على الاعتماد على الحضارات التي تأسست منها هذه المجتمعات فالمهم توزيع ومساهمة كل المجتمعات وتذويبها وتذويتها في مجتمع واحد يعمل على التواشج والتقارب ما بين سلوك ذاك ومنهج ذلك.

إن العلاقات الاجتماعية واختلاف الآراء في المنهج والسلوك لا يضعف الدراسات الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية والقانونية والثقافية وغيرها، بل على العكس من ذلك يوضح الإمكانيات والقدرات الفردية والجماعية وهذا ما يصبو إليه الإنسان الحضاري الذي يعمل على اكتشاف المتقاربات الذاتية والجمعية من اجل الوصول إلى الذات الجمعية التي أكد عليها الكثير من علماء البحث الاجتماعيين والنفسيين والذين بحثوا فالانثروبولوجية بالدرجة الأساس الاجتماعية والطبيعية والثقافية.

كما يحاول البحث دراسة الجانب اللغوي والجانب الحياتي من خلال الطرائق نفسها واقصد بالمنهج والسلوك، فعلى الرغم من إن كل مجتمع متطور بشكل مختلف ومتخذا من سلوكه معنىٍ مغايرا في إطار مقومات وخصائص مختلفة تتمركز حول الذاتية دون الغيرية وتتمركز أيضا من منظوره الخاص، إلا إن هذا لا يمنع من جعل تلك السلوكيات والمفاهيم

والموضوعات المتعددة والمسارات والاتجاهات الانثربولوجية إن يكون لها قواسم منتجة تعمل على رسم الأفكار والمرجعيات الموحدة من قبل الإنسان العراقي.

إن اليوم في أمس الحاجة إلى التواصل والعمل من اجل إن يكون للفرد العراقي رأيا متميزا وفاعلا في المجتمعات الغربية والمجتمعات الشرقية، لان العادات والتقاليد المتوارثة والمتعاقبة والقيم الدينية الصحيحة أصبح لها معطى سلبي أكثر مما هو ايجابي بسبب القرارات الفردية والقرارات غير المدروسة، لهذا لامناص من تفعيل دور الانثربولوجيا بكل اتجاهاتها ولاسيما الثقافية منها حتى نوشج ونقارن ونطبق ما تعلمناه من مجتمعاتنا وحضاراتنا وقيمنا لا على المستوى الفردي والتمسك بالأنا الأعلى بل على المستوى القيمي الحقيقي الذي يبنى المشتركات والقدرات والثقافات المكتسبة والمعنى الإنساني الجمعي والنسيج المتداخل الذي يجمع كل العوامل المتشابهة تبعا لثقافاتها.

والمسرح بصفته الخاصة يكون له دورا أيضا في بيان وتقديم المنهج والسلوك الانثربولوجي، كونه احد الأجناس الأدبية وهو مرآة عاكسة للمجتمع، فالأدوار التي قدمها على المستوى الغربي وعلى المستوى العربي قد حققت ما يصبو إليه المجتمع العربي من خلال النصوص المسرحية والعروض المسرحية الفاعلة والمنتجة التي كان لها الدور الأساس في تعميم وتحليل المعرفة التصرفات البيولوجية والثقافية للإنسان عن طريق الجسد والصوت، وهذا ما طبقه (يوجين باربا) و(بيتر بروك) و(جيرزي كروتوفسكي) عندما ذهبوا إلى الشرق، وأيضا ما تعلمه كتاب المسرحي العربي من تجاربهم الشخصية وزياراتهم الميدانية من خلال دراسة كل الثقافات لاسيما الشرقية منها. ومن المنطلق أعلاه يتم طرح عدة تساؤلات ومحاولة الإجابة وإيجاد الحلول لها:هل أصبحت الانثربولوجيا منهجا وسلوكا في المسرح العراقي؟

هل ثمة تطورات ملموسة وملائمة في كل الأنواع التي تندرج ضمن الانثربولوجيا ممكن أن تواكب الإنسان العراقي؟

ضم البحث الفصل الأول: الانثربولوجية-المنهج-السلوك-الأنواع، بينما ضم الفصل الثاني/المبحث الأول:الانثربولوجيا في المسرح-دراسة في المجتمعات الغربية والعربية، بينما عني المبحث الثاني: دراسة انثروبولوجية في المجتمع العراقي،بينما تضمن الفصل الثالث: دراسة تحليلية في النص المسرحي (مسرحية حصاني للكاتب جواد الاسدي)، كما شمل البحث على المقدمة والخاتمة فضلا عن المصادر والمراجع وملخص البحث بالعربي والانكليزي.

مقدمة

إن دراسة الانثربولوجيا في المجتمعات والاطلاع على المنهج الذي يحدد ويرسم ملامح تلك المجتمعات وما يرافقه من سلوكيات متعددة لها طبيعتها وميولها، ولها توصيفاتها سواء أكان ذلك قديما أو حديثا لابد له أن يكون له اثر مهم معرفة ذلك التوجه الذاتي التواصل مع الآخر وتبادل تلك السلوكيات، كما أن تسليط الضوء على الثقافات الذي يعتمدها ذلك المجتمع أو غيره أو تقسيم كل مجتمع إلى طبقات حسب العادات والمشاعر والمصالح له تداعيات عبر الزمان والمكان حسب ما آلت إليه نظريات الوجود ونظريات الطبيعة وما حددها العلماء والفلاسفة وفق التطبيقات والمسارات والخبرات التي طبقوها كمحاكاة أو بصورة تعبيرية.

والواقع إن المجتمعات وكل إنسان يحاول إن يتصرف وفقا لمعرفته وثقافته التي بناها عبر أساليب الحياة وعبر تعبيرات ذاته وخلجاتها، ووفق متغيراتها الاجتماعية والثقافية وسلوكياته التي تطرأ عليه بين الحين والأخر، ومن خلال التواصل الذي يمكن إن يؤثر أو يتأثر بالآخر كي يتسنى مواكبة التطورات التي تحدث في مجتمعه أو المجتمعات الأخرى، والانثربولوجيا كعلم يعنى بدراسة الإنسان ويقوم منهجه ويرسم خطوات متطورة عن طريق العادات والتقاليد وكذلك النتاجات المادية والروحية، فضلا عن تقديم التراث المدني والحضاري الذي يتكون من خلال البيئة والطبيعة التي يعتمدها، وكذلك يطرح المشكلات الحياتية التي يواجهها لكي يتم معالجتها فيما بعد من قبل الذات الإنسانية.

والمسرح واحدا من الأجناس وكفن مستقلا بذاته يدرس هذا علم الانثربولوجيا عبر تداخل العلوم التي يحتضنها ومن خلال النص الثقافي، أو من خلال الفرجة التي يقدمها، فيحاول أن يؤكد على قضايا المجتمع ومشكلاته في دراسته عبر السلطة والتاريخ والتناص والأصالة وحضورها المستمر في ذاكرة المجتمع العراقي على وجه الخصوص، لهذا كان لزاما علينا أن نواكب ونرصد المنهج والسلوك الذي يمكن إن يحدده المبدع (الكاتب) أو (المخرج) أو (الفنان) في دراسته ومدى علاقتهما مع المجتمع العراقي وتأثيراته.

الفصل الأول

الانثربولوجيا-المفهوم-السلوك-الأنواع

لاريب أن الانثربولوجيا واحدة من العلوم الحديثة نسبيا إذا ما قورنت من بين العلوم الأخرى كالعلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية والعلوم البيولوجية والعلوم الفلسفية والعلوم النفسية، فهي لفظة أو كلمة "انكليزية ومشتقة من الأصل الإغريقي المكون من مقطعين انثروبوس ومعناه الإنسان، ولوجوس (loco) ومعناه علم. وبذلك يصبح معنى الانثربولوجيا من حيث اللفظ علم الإنسان أي العلم الذي يدرس الإنسان"(الشماسي، 2004، صـ13) وهي تشمل دراسة البشر وسلوك الإنسان والمجتمعات الماضية والحاضرة، ولاسيما علم الإنسان الاجتماعي وعلم الإنسان الثقافي اللذان يدرسان كل المعايير والقيم وسلوك المجتمعات الغربية والعربية.

كما ولدت الانثربولوجيا في حقول أخرى كحقل "المعرفة العربية المعاصر...ودخلت لفظة انثربولوجيا المعجم الفرنسي سنة 1832م وتعني علم أو وصف الإنسان وتفرعت سنة 1516م من لفظتي (بشر-إنسان) وعلم Logic. فالانثربولوجيا فرع من الاثنولوجيا (علم السلالة) الذي يدرس كل الخاصيات التشريحية والاجتماعية للإنسان المصنف ضمن السلسلة الحيوانية"(إبراهيم، 2009، صـ13) وبمعناه إن الانثربولوجيا اسم مؤنث يعني دراسة الإنسان الملاحظ داخل هذه السلسلة الحيوانية.

والمعنى الحديث المتداول لمفهوم الانثربولوجيا لم يستقر أو يرتكز في نهاية القرن التاسع عشر، لهذا تم التباحث والتداول والتواصل في المحافل الغربية ولاسيما الفرنسية منها ومحاولتهم لتوليف خطاب حول الإنسان، ودراسة هذا الخطاب، من اجل تشكيل مجالا معرفيا واجتماعيا، من اجل تأسيس منهج إنساني، يركز في ذلك على مفهوم الطابع الذي ساعد كل الباحثين والدارسين على تفسير الطبيعة الإنسانية وخوالجها، ومعرفة التواصل مع الآخر والتأثير به سواء أكان ذلك في مجتمع واحد أو مجتمعات عدة.(مجموعة كتاب، 2002، صـ10). من اجل أن يكون الإنسان ومجتمعه أكثر شمولية وأكثر كمالا في بحث التوافقات الأيديولوجية والسلوكية.

إن المقترحات التي مارسها الباحثين والدارسين لتأكيد منهج الانثربولوجيا أو حسب ما يطلق المنهج الإنساني، هي مقترحات منحه إلى دعم المنهج وليس النتائج العملية التي يراد

الوصول إليها، وهذا المنهج هو "منهج السني بقدر ما هو منهج انثربولوجي" (ليتش، 2010، صـ8) والمنهج لابد من أن يشير إلى مظاهر الحياة الإنسانية البدائية والحضارية، يصفها ويحاول أن يدرسها وفق تعدد المجتمعات ووفق أنواع الانثربولوجيا، وكذلك أصول التعبير من اجل استنتاج المؤشرات التي تقوم عليها. ويرى أكثر الانثربولوجين أن منهج (هيرودتس) في "وصف ثقافات الشعوب يحمل في طياته إلى جانب الوصف العام لمظاهر حياة الشعوب وبعض النظم الاجتماعية لبعض أساسيات المنهج الاثنوغرافي المتعارف" (فهيم، 1986، صـ37). بمعنى أن دراسة الانثربولوجيا تدرس من خلال صفات جسمية وكذلك طرائق سلوك الأشخاص لا تفسر على أساس تنظيم المجتمعات لكون إنها أنماط مختلفة تكون في بعض الأحيان اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية تبعا لتطورها وتبعا لتواصلها مع المجتمعات الأخرى. وعليه سوف نتعرف على نوعين من الانثربولوجيا هما الانثربولوجيا الاجتماعية والانثربولوجيا الثقافية لأنهما يخدمان هذا البحث:

1- الانثربولوجيا الاجتماعية:

إن دراسة السلوك الاجتماعي لاريب يشمل شكل مجموعة كبيرة من السلوكيات منها شكل النظم الاجتماعية والتي يخضع للعائلة وكذلك نسق القرابة والتنظيم السياسي وأيضا الأطر القانونية والشرائع الدينية وغيرها، فضلا عن ذلك العلاقة بين هذه النظم سواء أكان ذلك في المجتمعات البدائية أو المجتمعات المتحضرة، إذ إن الإنسان لا يتعايش مع نفسه أو ذاته بل يحاول إن ينظم علاقات ومجموعات لتكوين الأفراد أو الأفكار والرؤى المتعددة.(بريتشارد، 1975،ص13). فالتواصل وخلق العلاقات يعيد بناء الشخصية ويرسخ قيم جديدة لها مبرراتها التي تعمل على تكون ثقافات جديدة ليس داخل المجموعة الصغيرة بل داخل مجتمع أو حضارة بكاملها.

أذن النظام الاجتماعي سوف يؤلف أنواع من السلوكيات الفردية والجمعية واللغة والحياة الاجتماعية تساعد الإنسان على نقل الثقافات مهما تعقدت وكذلك ساعدت هذه النظم على المحافظة على ارث المجتمعات بصورة غير ايجابية، وعملت الحياة الاجتماعية على جعل الإنسان بحاجة إلى الإرث الاجتماعي، فعلى سبيل المثال لا الحصر قام عالم الاجتماع (دوركهايم) بتطبيق فكرة الوظيفة في دراسة المجتمعات الإنسانية، والتي تقوم بين الحياة الاجتماعية والحياة العضوية، إذ يتعذر طرح مجموعة من الأسئلة بالطبيعة

أو بالأصل قبل تحديد هوية الظاهرات وتحليلها، والكشف عن مدى العلاقات التي تربط فيما بينها. (ستروس، 1998، صـ21). وهذه يتطلب توشيج العلاقات بين أفراد العائلة الواحدة ومعرفة أصولها فضلا عن الهوية التي تشكلها بغية الوصول إلى تعاون مشترك بين الثنائيات والاختلافات التي يمكن إن تحدث من جراء المقارنة والمتابعة تبعا للتحليل أو التطبيق الذي يقوم به الباحث.

2- الانثربولوجيا الثقافية:

إن تلقي الثقافة لا يحدده عمر أو يخضع له فرد فعملية تلقي الثقافة يتواصل باستمرار، فالانثربولوجيا الثقافية هي "ذلك العلم الذي يهتم بدراسة الثقافة الإنسانية، ويعنى بدراسة الأساليب الحياتية للإنسان وكذلك سلوكياته النابعة من تلك الثقافة"(بيلز، 1977، صـ21) ومثل سابقتها أيضا تدرس المجتمعات القديمة والمعاصرة، من اجل فهم المتغيرات التي يمكن أن تطرأ على المجتمعات عن طريق التواصل بصورة مباشرة أو غير مباشرة واعني بذلك عن طريق الفن أو التكنولوجيا وما شابه، من اجل التطور بكل مراحله.

ولما كانت ثقافة الإنسان والتي تشمل الأعراف والتقاليد والمعتقدات والممارسات والسلوكيات وهي الوسيلة للتواصل مع الآخرين، محليا أو مع مجتمعات أخرى في ظل الخصائص الاجتماعية المتشابهة والمختلفة، لهذا جاء هذا النوع ليدرس تلك المقارنات عن طريق دراسة الاثنولوجيا من خلال دراسة ثقافة المجتمعات المتوافرة، وكذلك الثقافات التي فرضت بشرط توافر التسجيلات المكتوبة، فضلا عن كل ثقافة المجتمع أو المجتمعات التي يبحثها من خلال النظم السياسية والاقتصادية والدين والتقاليد والفنون وكذلك المثل العليا والفلسفات. (الخطيب، 2008، صـ18). من اجل إن تصنف كل هذه الثقافات والنظم المتعددة بحثا عن طرائق جديدة ومتعددة بين الثقافات.

الفصل الثاني

المبحث الأول: الانثربولوجيا والمسرح-دراسة في المجتمعات الغربية والعربية

لاشك أن الطقس واحدا من العلامات الثقافية التي ارتبطت منذ القدم بفن المسرح، بل يشكل ركنا أساسيا في كل نشاط مسرحي أو سلوك إنساني، ومنها الطقس الانثربولوجي ذلك العلم الذي يبحث في أصل الإنساني وتطوره وأعرافه وعادته ومعتقداته، وكذلك يدرس هذا الطقس الحضارات والثقافات وعوامل تباين أشكال الحياة الاجتماعية، وهذا يعني دراسة الإنسان اجتماعيا بوصفه جزء من المجتمع فضلا عن سلوكه. والخطاب المسرحي جاء من خلال مراحل تطور الطقس والأسطورة وهذه الأخيرة مصاغة من الطقس مباشرة.(الريموني، 2009، ص14)، وهذا يعني إن البحث الانثربولوجي يعد جزءا مهما في توثيق المنظومة المسرحية التي يمكن إن تخضع للتقييم أو الضبط إلا إن هذا التغير بقية مواصلا للتابع الأرسطي إلا في حدود المتغيرات التي أحدثتها الاتجاهات أو الأساليب الحديثة.

ومن بين التجارب التي حاولت استخدام الطقس في المسرح الغربي والعربي والبحث في الانثربولوجيا كون المسرح شكل من أشكال الفرجة التي تنتجها الثقافات والحضارات المتعددة، تجارب، بيتر بروك، يوجين باربا،المغرب، العراق. فالتجربة التي خاضاها (بروك) في المركز الدولي لبحوث المسرح، عندما حاول جمع عددا من الممثلين من بلدان العالم والذين يشكلون خلفيات ثقافية مختلفة ومتنوعة، إذ يقول "لا يشتركون في شيء، لا لغة مشتركة، ولا إشارات مشتركة، ولكنهم رغم ذلك حسب توقعه سيشكلون باعتبارهم أجزاء من الإنسان الكامل الكائن الإنساني مكتمل التطور"(إبراهيم، 2009، صـ180-181) وهذه التجربة من التجارب التي تنتمي للفعل والسلوك الانثربولوجي في المسرح الذي حاول فيه المخرج الانكليزي بأن يجعل المسرح هو الحياة الإنسانية بكاملها من خلال مجيئه إلى الشرق أو الغرب، من خلال استخدام الحركة أو الإشارة المختزلة أو الإيماءة للتعبير عبر ميله على الجذور الأولى التي كان يعبر عنها المسرح الطقسي.

ومن خلال التجربة الغربية الأخرى تجربة (باربا) التي تحدث فيها عن مكونات المؤسسة الدولية للانثربولوجيا المسرحية عن ضرورة الاعتماد على الشرقيين لتحقيق معرفة دقيقة بالممثلين، إذ يقول: "إن الممثلين الشرقيون يمتلكون، حتى عندما ينفذون

تدريبا تقنيا باردا، حضورا يؤثر في المتفرج ويرغمه على مشاهدته في مثل هذه الوضعية لا يعبرون عن شيء، لكن هناك رغم ذلك شبه مركز وإشعاع مثير وبارع، غير مهيأ سلفا، يسلب حواسنا هذه القوة قبل تعبيرية لا يتعلق الأمر قبليا بتمثيل ولا بصورة مسرحية وإنما بالقوة التي تنفجر من جسد مشكل" (يوسفي، ب.ت، صـ104) إن خوض التجربة مع مشاركة أساتذة الشرق ليست مشاركة الأساليب الجمالية أو المتعة الفنية أو المعطى الخيالي بل كونهم يمتلكون سر تقنية تواشج الأجساد وتشكيلاتها بمعنى إن تحقيق الثقافة لا يتم إلا من خلال مشاركة الثقافات المتعددة. وفي السياق ذاته الذي يبحث فيه (باربا) حول منظومة جسد الممثل في الحياة الاجتماعية يرتكز أساسا على تمييزه بين السلوك اليومي للممثل والسلوك خارج اليومي: (مجموعة كتاب، 2002، صـ38)

1- يحيل السلوك اليومي إلى السيرورة اللاشعورية الشاملة التي تمتص وتعكس أصواتنا وأجسادنا من خلال الثقافة التي نحيا فيها من اجل اكتساب تقنية الجسد التي تعكس المجتمع.

2- السلوك الخارجي اليومي يرمز إلى تقنية الجسد وهي مختلفة تماما عن متاهات السلوك اليومي. ومنها المسرح الشرقي أو المسرح العربي في المغرب.

فالانثربولوجيا المسرحية لدى (باربا) هي دراسة السلوك السيوسيو-ثقافي والفيزيولوجي للإنسان داخل وضعية ممسرحة، أو هي عبارة عن طروحات متواصلة مع الممثل.

ثمة علاقة متواترة ما بين الحساسية الانثربولوجية والاتجاه الانثربولوجي في المسرح الغربي لدى بروك وباربا وغيرهم، قاد إلى الحساسية الانثربولوجية في المغرب عبر واجهتين أساسيتين هما: (يوسفي، صـ81-82)

أ- واجهة البحث المسرحي الجامعي:

فهذه الواجهة أشار إليها (حسن المنيعي) من خلال كتابه (أبحاث في المسرح المغربي) التي شكلت المنعطف الأول في التوجه الانثربولوجي والتي لازالت مستمرة عبر الأبحاث التي يقدمها الطلبة في المعاهد والجامعات والتي تبحث بالأصول والتقاليد المسرحية في المغرب والتي تعتمد على دراسات أكثر تعبيرا على التمثل العميق للدرس الانثربولوجي. وغيرها من الدراسات التي تؤكد أن مسألة الأصول تشكل احد ثوابت الدرس المسرحي في المغرب. وهذا كله حتى ينعكس على واقع المجتمع المغربي لتكوين علاقة الذات مع الآخر.

ب-واجهة التنظير المسرحي التي خرجت من رحم مسرح الهواة.

وعلى مستوى التنظير المسرحي يمكن القول أن ظهور مفهوم الاحتفالية كاتجاه مسرحي خرج من رحم مسرح الهواة كان مؤشرا حقيقيا على بروز الحساسية الانثربولوجية في المسرح المغربي ولاسيما قضية العودة إلى الأصول والتأصيل وهي القضية الجوهرية والأساسية. فمسرح الهواة كان حقلا خصبا للأيديولوجية الماركسية مما حول النقاد أبحاثهم على محاكمة مفهوم الاحتفالية على انه محاكمة أيديولوجية بحتة وهذا يحيل إلى النزعة الإنسانية وهذا ما أشار إليه (عبد الكريم برشيد) في مسرحه.

وفي التجربة العراقية ولاسيما المسرح العراقي التي يؤكد فيها الناقد (عواد علي) إن ثمة جهدا أسسه (قاسم محمد) في صياغة الحدث الانثربولوجي من خلال الاعتماد على أجواء الفرجة الشعبية، والصيغ الاحتفالية عبر توظيف التراث عبر مفاهيم الطرفة، الحكم، الحكايات الشعبية والمناظرات والمطاردات ومفارقات الشطار وغيرها وهذا ما نلمسه في فترة السبعينات عن طريق مسرحياته (بغداد الأزل، مجالس التراث، كان يا مكان، طال حزني وسروري في مقامات الحريري) فالإضافة التي قدمها (محمد) تكمن في التجريبية في استنتاج سينوغرافية عربية، طقسا وفضاءً وأداء ما يسمى بالتشبيه.(علي، 2001، صـ20) وهذه ما قاد فيما بعد بأن أصبح هناك طقوس وشعائر انثربولوجيا شاعت واستمرت في توطين الثقافة الاجتماعية التي توارثها المجتمع العراقي في التعبير عن المعنى واللغة التي تحكي عن التراث الانثربولوجي الجديد. فالطقس المسرحي بات له تأثير كبير على المسرح التجريبي في العراق وهذا ما اعتمده (الاسدي) من خلال تأسيس منهجه من الغرب والشرق عبر مناخ احتفالي انثربولوجي مسرح يعبر عن سلوك يومي مستمر ومتواصل.

المبحث الثاني: دراسة انثروبولوجية في المجتمع العراقي

إن دراسة الانثربولوجية في المجتمع العراقي ولاسيما دراسة (علي الوردي) شكلت جدلا اجتماعيا وثقافيا على حد سواء لما ما تمتلكه أو تحمله هذه الشخصية من مشروع فكري وثقافي من خلال طرحه أسئلة جوهرية وخطيرة تتعلق بواقع المجتمع العراقي

وتاريخ الإنسان العراقي وسلوكه وتكوينه وخصائصه العامة بين الماضي وربطه بالحاضر، فلا يمكن فهم المجتمع العراقي أو الفرد الإنساني وشخصيته بمعزل عن تاريخ العراق وما مر به، على الرغم من أن كل شخصية لها مميزاتها الخاصة وهي تختلف عن ما يماثلها في أي مجتمع، فالحكم لا يخضع إلى منطق معين بل إلى منطق خاص به، وهذا يقود إلى التساؤل حسب (علي الوردي)، لماذا نريد أن نعرف طبيعة الإنسان على حقيقتها وما هي الفائدة؟ والواقع لا نستطيع إن نصلح الإنسان أو نعالج مشاكله ما لم نفهم طبيعته. وقد اخطأ من قال لدى البعض بأن الطبيعة البشرية جلها نتاج العقل، كما فعل (أفلاطون) أو (الفارابي) من خلال نظرية المثل وهذا ما لم يتحقق فيما بعد بسبب أن البشر على توالي الأزمان لا يحتكمون إلى وجهة نظر واحدة أو رأي واحد.(الوردي،ج2، 2005، صـ353).

فالعقل في الإنسان ما هو إلا جزءا واحدا قد يكون من خلاله البحث عن الحقيقة ولكن الأساس في ذلك أو ما نبحث عنه الوسيلة التي تساعد الإنسان في الكشف عن مكامن الحياة، ولكي يفهم كنه العقل هناك ثلاث أمثلة تنظر في أحوال البشر وهي:(الوردي،ج2، 2005،ص324)

1- إن الإنسان إذ ينشأ في بيئة اجتماعية معينة، نراه يؤمن بصحة ما فيها من معتقدات وتقاليد وقيم.
2- إن الإنسان حين يتنازع مع خصم له على مصلحة مادية أو معنوية نراه يتخذ كل وسيلة تقع في يده من اجل التغلب على خصمه.
3- إذا أحب الإنسان شخصا أو شيئا تحيز في تفكيره نحوه.

ومن الأمثلة الثلاث يتبين أن العقل لا يمكن إن يفسر كل شيء لان الإنسان بحد ذاته يميل إلى الجهة التي يراها هي مناسبة أو الجهة التي يعتقد بها إنها الأفضل أو الأصح كون أن الإنسان العراقي يخضع في حياته الاجتماعية إلى أشبه ما يسمى بالتنويم الاجتماعي، أو ما يسمى بالتنويم المغناطيسي حسب ما يطبقه (فرويد) في تجاربه، بمعنى أن المجتمع يسلط على الإنسان منذ الماضي وحتى الحاضر ومنذ صغر الإنسان إلى الكبر ضمن تفكير إنساني ضيق إلى حد بعيد، إذ لا يمكن التحرر منه وفقا للتقاليد والقيم والأعراف السائدة.

وفي الواقع أن القيم الاجتماعية السائدة لها أثرا كبيرا في توجيه الأفراد في أي عمل ما، أي إن المجتمع يوجه الإنسان نحو أي جهة أدبية أو تاريخية يريده بها، وهذا ما يؤكده (علي الوردي) على أن في بعض المجتمعات يكون هناك نظامان متناقضان من القيم:(الوردي،ج2، 2005،صـ341)

أ- الأول واقعي وهو الذي يجري تقدير الأشخاص به عمليا.

ب- الثاني مثالي وهو الذي يتواعظ به الناس في خطبهم ومقالاتهم.

وهذا ما يقود إلى ازدواج الشخصية فقد تراه في بعض الأحيان يميل إلى الواقعية وفي بعض الآخر يميل إلى المثالية ومن ثم لا يمكن للإنسان في أي مجتمع أن يصل إلى مبتغاه الجمعي طالما يحيل أفكاره وما يدعيه إلى إثباتات شخصية أو فردية.

إن المجتمع البشري لا يستطيع أن يتعايش أو يدرك الاتفاق مع ذاته أو نفسه وحده، على الرغم من الاتفاق الواحد يؤدي إلى الكثير من الايجابيات وعلى العكس أيضا يؤدي إلى الكثير من السلبيات، فعلى الرغم من النظريات وتعدد المفكرين إلا إن الرؤية من اتجاه واحد توقع في الخطأ بمعنى ثم النظر إلى الحقيقة من النصف الأول وعدم النظر إلى الحقيقة من النصف الثاني، لهذا فهم المجتمع في الماضي والحاضر على حد سواء كفيل في العمل على تمسك المجتمع، "فالاتفاق يبعث التماسك في المجتمع، ولكن يبحث فيه الجمود أيضا.فاتحاد الأفراد يخلق منهم قوة لايستهان بها تجاه الجماعات الأخرى، وهو في عين الوقت يجعلهم عاجزين عن التطور أو التكيف للظروف المستجدة، فالتماسك الاجتماعي والجمود توأمان يولدان معا، ومن النادر إن نجد مجتمعا متماسا ومتطورا في آن واحد"(الوردي، 1994، صـ20) بمعنى أن معرفة ما اعتمده المجتمع في الماضي وما ورثه الإنسان من الآباء والأجداد غير كفيل بالوصول إلى التطور أو الحداثة أو مواجهة كل القيم الجديدة التي تطرأ أو يمكن إن تتغير لان الإنسان بحد ذاته متغير الميول والصفات تبعا للظروف التي تواجهه أو تنعكس عليه، فالإنسان الحضاري يبحث عن سلوك جديد يريد به أن يكتسب هوية جديدة وشخصية قوية لا تنفرد عن سابقتها بقدر ما تهيئ لها واقع يحس إن يكون مكون من قبله أو ذاته، فالتنازع والانسجام والتواصل يجب إن يكون ضمن مبدأ لا شخص بعينه قد يكون مندمج ما بين الماضي ببداوته وما بين الحاضر بتطوره.

خلاصة القول أن الصعوبات والعراقيل التي تعتري شخصية الإنسان ولاسيما الإنسان العراقي تبقى وليدة بسبب العوامل البيولوجية التي تنسج منها جسم الإنسان، والعوامل الاجتماعية التي تصنع هذا الجسم لذلك تلك الازدواجية التي يشير إليها الوردي بوجود شخص بشخصيتين اثنتين، فمركز الشخصية الشعور بالذات وما تحمله من إيحاءات وقضايا متعلقة بها، والنشأة الأولى للشخصية من حيث الارتباط بالعائلة والأصدقاء وغيرهم لها الأثر العميق في حياة الفرد وتطوره، لهذا فالشخصية التي تكون من صنيعة المجتمع تتأثر به وتقود إلى السلبية في كثير من الأحيان، والشخصية التي تكون صنيعة نفسها تكون قابلة للتغير أو التواصل حتى تستطيع أن يكون لها شأن في هذا المجتمع. بمعنى آخر أن الفرد لا يريده أن يكون منفصلا على المجتمع البدوي أو المجتمع الحضاري أو غير ذا صلة بقدر ما يكون لهذا الفرد الإنساني أو طبيعته أو سلوكه شخصية منفردة يكون لها دورا كبيرا في بناء الحياة الاجتماعية البشرية الجديدة.

الفصل الثالث

دراسة تحليلية في النص المسرحي

(مسرحية حصاني للكاتب جواد الاسدي*)

ثمة علاقة ما بين التأليف والإخراج في نصوص الكاتب المسرحي العراقي جواد الاسدي، علاقة جدلية بين النص المكتوب المقروء ونص العرض البصري ومقياس لصورة بصرية ورسم للكلمات المتحركة وصور شاخصة وعوالم متحركة وأفعال ملموسة، قلما نتلمسها لدى كاتب آخر، إذ الكلمة سريعة تنطلق باتجاه المعنى المقصود والواضح، ولا مبالغة أو تطويل، بل تكثيف واختزال وصور تتداعى بانسيابية، وموسيقى درامية واعية تنساب في خيال القارئ.

إن مسرحية (حصاني) تتضمن خمس شخصيات هي (خيون) السائس و(فطوم) التي تعشق السائس و(داليا) التي يعشقها السائس و(شنان) الطبيب البيطري وشخصية (فيافي)

(*) جواد الاسدي: ولد عام 1947م مخرج ومؤلف مسرحي عراقي ولد في بغداد، حاز عام 2004 على جائزة الأمير كلاوس للمسرح، عمل مدة 14 عام مع المسرح الفلسطيني ولاحقا مع المعهد العالي للفنون المسرحية، كتب العديد من المسرحيات أهمها: نساء في الحرب، حمام بغدادي، حصاني، واخرج رأس المملوك جاب، تقاسيم على العنبر.

الحصان وشخصية السيد الشخصية الغائبة إلا إنها تحضر بالتعليق عليها من قبل السائس، ومن خلال هذه الشخصيات تبرز براعة الكاتب في تركيبتين الأولى في شخصية (خيون) الشخصية الإنسانية ذات الانطباع الانثربولوجي وطبيعة العلاقات الإنسانية، الشخصية الجدلية التي تتداخل مع سيدها من جهة ومع شخصية (فيافي) الشخصية الحيوانية من جهة أخرى، والتركيبة الثانية شخصية (فيافي) البطل الآخر المضاد للسائس كمعادل نفسي للفوز والخسارة والقوة والانكسار والوفاء والانتقام فما بين تلك المتناقضات أو فلسفة الثنائيات تتجلى شخصية العنفوان والنرجسية المفرطة ضد التواضع ونكران الذات.

خيون: (يحدث حصانه)

نرجسيتك المفرطة وفوزك الدائم بالسباقات افسد تواضعك، وجعلاك تظن أن لا احد سيضاهيك في قوتك، وانك الابقى، والمؤبد في فوزك!...(المسرحية، صـ15).

إن منهج الانثربولوجيا كعلم وسلوك ومن خلال دراسة الإنسان يوضح أن الإنسان في أصله حيوان وتعلق شخصية (خيون) بشخصية الحيوان (فيافي) لها دلالتها الجسدية والرمزية وتعلقها ليس كونه المربي له فحسب، وإنما لترابط كلتا الشخصيتين من حيث السلوك والأداء والصفات التي ترسم ملامحها، فشخصية (خيون) ترتسم على محياه وصفاته نفس ملامح شخصية (فيافي) من حيث القسوة والعدوانية المفرطة لما انتهجه السيد ضد السائس (خيون) من جوع وذل ومهانة، لهذا يقوم (فيافي) بأفعال الحرق من خلال إتلاف كل ما موجود في الإسطبل من ملابس وخزائن، إذ لم يفهم (شنان) تلك العدوانية وهذا ما يوحي إلى إتلاف للموروث الكامل عن حياة السيد، أذن هي حالة من التطرف التي تنتاب الشخصية المركبة التي تنتهي بها بعض الذكريات والجثث في بعض الحضارات والمعتقدات ، فالرماد والحرق هو نهاية البداية.

خيون: ...لماذا أطحت مكتبة السيد، ومزقت أوراقه الخاصة...لماذا وضعت بدلاته العسكرية في الموقد وأحرقتها كلها،...

الحصان وهو في حالة غضب يصهل ويقفز ويقدم حركة جسدية مضطربة تدل على انزعاجه من خيون..(المسرحية، صـ15-16).

إن شخصية (فيافي) لا تظهر في المسرحية إلا من خلال حركات أو إشارات جسدية وكذلك شخصية السيد، فشخصية (خيون) هي التي تربط هذه العلائق ما بين الشخصيات لأنه هو الذي يقوم بالأدوار بين الحين والأخر لكي يفهم القارئ الدلالات الرمزية والقيم الإنسانية التي تحملها بعض الشخصيات والقيم الإنسانية ذات الصفات الحيوانية والقيم الروحية والهموم والشجون والأحاسيس المتناقضة والعيوب والنهاية التي تساق إليها الشخصيات بدون رغبة بعد فقدان كل شيء، فالشخصيات القوية تكون في داخلها الانكسارات والتردد، فما بين خوض السباقات والفوز بها دائما والخسارة الوحيدة التي أدت به بالنهاية لشخصية (فيافي)، وما بين نهاية (خيون) التي يقررها بنفسه ويرسم ملامحها بنهاية الشخصية الأخرى الحيوانية كون التعلق بها حبا ووفاءً بالحصان.

خيون: تلقفتك منذ كنت مهرا صغيرا. عاملتك بأبوة...كنت أطلعك على أسرار الفوز في السباقات...كنت أريد أن أحميك من وساخة السباقات والمراهنات والفوز الهش لكن الجوع الذي وقع علينا أرغمنا على قبول الحد الأدنى من حياة بائسة، شاحبة...(المسرحية، صـ50-51).

فما بين البيئة التي عاشها (خيون) والبيئة التي عاشها (فيافي) ثمة علاقة انثربولوجيا يحكمها الصراع الاجتماعي الذي عانى منه كلتا الشخصيتين، وما أقحمه (خيون) نفسه بالعذاب والانكسار لأنه هو صاحب العقل الوحيد الذي يفكر دائما في لحظات الفوز والانكسار والوفاء والخيانة، لان بعد السباق الأخير وخسارة الحصان (فيافي) للمرة الأولى بعد سلسلة الانتصارات يبدأ (خيون) برثاء نفسه يمثل فيه السقوط والنكران للجميل في كل حياته لأنه لم يستطيع أن يحقق أي شيء لا على مستوى علاقته بما يحب (داليا) التي لا تريده بل تريد سيده ولا على مستوى تكوين حياة تليق به من خلال التضحية والقوة التي استمدها من الحصان أو بمن كانت تحبه (فطوم) فلذلك نجده يحدث العالم كأنما سقط بالكامل أو انهارت الحياة برمتها.

خيون: انهار سقف العالم على رأسي

لم أنتظر مثل هذه النهاية

كأنما الحياة قد قررت مسح اسمينا عن لائحة الأحياء

لا وجع أشد من وجع الهزيمة...(يصهل الحصان ويتحرك بعصبية شديدة محولا حركته إلى إشارات اعتراضية وسخط ورغبة في الخلاص مما يجري حوله... (المسرحية، صـ58)

إن هذا التناقض في شخصية (خيون) قاد إلى معطيات انثروبولوجية وسلوكيات مترددة فحبه المفرط لشخصية (فيافي) وانحيازه ما هو إلا انحياز فكري وانحياز اجتماعي وانحياز بيئي لان أراد أن يصل بكلتا الشخصيتين إلى نفس الهزيمة والفوز أو الانكسار والقوة التقهقر والمواصلة، فالظروف التي واجهها هي التي أوصلته وقراراته التي اتخذها بنفسه من غير أن يشاركها مع الآخرين، وسلوكه اليومي المستمر في علاقته بالإسطبل وحياته المتكررة دفعته أن يقتل الحصان بسبب الخسارة الوحيدة التي خسرها بالسباق، فعلى الرغم من انه كان المربي والراعي والمعلم إلا انه تناسى كل ذلك بسبب نرجسيته وسطوته وأنانيته وهذه نهاية الإنسان والحيوان بسبب السلوك الأحادي والقرار الفردي.

خيون: سأطلق عليه رصاصة بثقل الهزيمة التي منينا بها!...(يصوب إلى رأسه وهو يطلق الرصاص)...(المسرحية، صـ67-68).

الخاتمة

في نهاية البحث سيظل المنهج الانثربولوجي علم منهجي وبحث ميداني وسلوك عملي من أهم مقومات العمل الناجح، وهذا يتطلب منا معرفة المشكلة ومن ثم علاجها وبالتأكيد هي مشكلة إنسانية، فضلا عن الأعراف والقيم والقوانين التي تحكم سلوكيات ذلك الإنسان ولاسيما الإنسان العراقي وأساليب التعامل معه ومن ثم بناء منظومة اجتماعية متكاملة وبناء علائق محبة بين الأفراد تحيا في مجتمع معين له ميزاته الخاصة في مكان وزمان معينين.

وتبين أن دراسة العلاقات بين الأفراد وعمليات التواصل بينهم كجماعة لها سلوك معين، فمنهج الانثربولوجيا يركز على سلوك مجتمع معين أو آخر ويدرس تأثير البيئة وطبيعة الإنسان وشخصيته المتفردة واثر الثقافة على تلك المجتمعات في تكوين الأفراد واثر نمو وتطور الحضارات. وان للانثربولوجيا علاقة وثيقة بعلم الاجتماع لاسيما

الانثربولوجيا الاجتماعية التي عرفت إنها علم الاجتماع المقارن، أي دراسة الاثنوغرافي أي دراسة الشعوب البدائية.

ومن خلال تطبيق وتحليل شخصية الفرد العراقي في المجتمع العراقي من وجهة نظر عالم الاجتماع (علي الوردي) توصلنا إلى أهم النتائج:

1- **إن شخصية الفرد العراقي شخصية جدلية اجتماعيا وثقافيا وهذه ما رسمته شخصية (خيون) في المسرحية.**

2- **لا يمكن إصلاح الفرد العراقي بصورة خاصة والمجتمع بصورة عامة ما لم يتم تحديد ومعرفة طبيعة الإنسان على حقيقتها وتحديد فيما بعد فائدتها.**

3- **العقل وسيلة قاصرة لا يستطيع تفسير كل شيء كما عند اصحاب المثالية، لان شخصية الفرد العراقي تميل أو تحيد إلى رأيين مختلفين أو جهتين مختلفتين ما بين شخصية (خيون) وشخصية (فيافي).**

4- **القيم والأعراف السائدة والعادات والتقاليد لها أثرا كبيرا في توجيه الإنسان العراقي مرة بشكل واقعي ومرة أخرى بشكل مثالي (شخصية) السيد الغائبة وشخصية (خيون) الحاضرة.**

5- **إن معرفة الإنسان العراقي بماضيه وتوارث القيم من الآباء والأجداد غير كفيلة بالوصول إلى التطور الحضاري أو معرفة الحداثة المتطورة.**

6- **إن المجتمع البشري لا يستطيع إن يتوصل إلى الحقائق الكاملة كون لا يتم الاتفاق على رأي سائد ممكن إن يحقق السلوك الأصح والأمثل وهذا ما وصلت إليه شخصية (خيون).**

المصادر والمراجع

1- الشماسي، عيسى، مدخل إلى علم الإنسان والانثربولوجيا، (دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2004).

2- إبراهيم، الزهرة، الانثربولوجيا والانثربولوجيا الثقافية، (دمشق: للدراسات والنشر والتوزيع، 2009).

3- مجموعة كتاب، الفرجة بين المسرح والانثربولوجيا، (الشارقة: دائرة الثقافة والإعلام، 2002).

4- ليتش، ادموند، كود ليفي شتراوس، تر: ثائر ذيب، (دمشق: دار الفرقد للطباعة والنشر، 2010).

5- فهيم، حسين، قصة الانثربولوجيا، سلسلة عالم المعرفة، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون، 1986).

6- بريتشارد، ادوارد، الانثربولوجية الاجتماعية، ط5، تر: احمد أبو زيد، (الإسكندرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975).

7- ستروس، كلود ليفي، الانثربولوجيا البنيوية، تر: صالح مصطفى، (دمشق: وزارة الثقافة، 1998).

8- بيلز، رالف وهاري هويجرا، مقدمة في الانثربولوجيا العامة، تر: محمد الجواهري وآخرون، (القاهرة: دار النهضة المصرية، 1977).

9- الخطيب، محمد، ط2، (دمشق: دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، 2008).

10- الريموني، فراس، الطقوس البدائية والمسرح، ط1، (اربد: دار الكندي للنشر والتوزيع، 2009).

11- يوسفي، حسن ، المسرح والانثربولوجيا، (الدار البيضاء: دار الثقافة مؤسسة للنشر والتوزيع، ب.ت).

12- علي، عواد، المعرفة والعقاب، قراءات في الخطاب المسرحي العربي، ط1، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2001).

13- الوردي، علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، ج2، ط2، (بيروت: دار الراشد، 2005).
14- الوردي، علي ، مهزلة العقل البشري، ط2، (بيروت: دار كوفان لندن، 1994).
15- الاسدي، جواد، حصاني، ط1، (بيروت: دار الفارابي، 2017).